

من معاني الانقلاب

لن أطرق في هذا الحديث^(١) موضوعاً شاملاً كاملاً، بل أفضل أن آخذ بعض ما توحىه فكرة الانقلاب التي يقوم البعث العربي عليها.

ايها الاخوان: لنحاول أن نتخلص من أفكار اصطلاحية كثيرة ومن نقل العبارات المألوفة، والالفاظ المجردة، ولنحاول أيضاً أن نرتفع قليلاً فوق المشاكل القريبة العارضة، لنحاول ذلك كله، لكي نقرب من حقيقة مشكلتنا الكبرى، ومن حقيقة قضيتنا كامة حية تنشُد الحياة الصحيحة، وتشق طريقها بنفسها وبجهدا واثقة مؤمنة.

ما هو الانقلاب؟ هل تقف عند حدود التعريفات السياسية؟ هل يبقى فهمنا مقصوراً على البرامج السياسية، وما تحويه من مشروعات ومقترحات، لتنظيم الحياة العامة في مختلف نواحيها؟ أم نفهم من الانقلاب شيئاً اعمق وأصدق؟

اننا نفهم من الانقلاب هذه اليقظة الحقيقية التي لم يعد مجال لانكارها، والتشكك فيها، يقظة الروح العربية في مرحلة فاصلة من مراحل التاريخ الانساني.

الانقلاب في حقيقته هو هذه اليقظة، يقظة الروح التي تراكمت عليها أثقال الاوضاع الجامدة الفاسدة، وحالت زمناً طويلاً دون ظهورها ودون اثباتها واشعاعها. هذه الروح، تشعر أخيراً بالخطر الكبير، بالخطر الحاسم، فتنتفض انتفاضة حاسمة. وانتفاضتها هذه، وسيرها لن يكون الا في تيار معاكس للأوضاع التي عاقت ظهورها، والتي اثقلت عليها الاحمال، وشوهت طريقها، السير في طريق معاكس للأوضاع الراهنة، للأوضاع الفاسدة المريضة الزائفة، هذه المغالبة للتيار بقصد ان تستيقظ بقايا الروح الاصيلية في كل مكان توجد فيه، وتتجمع وتتكامل، لابد من هذا السير المعاكس للمادة، الذي يحيا في كل خطوة من خطاه، الذي ينبه ويوقظ، الذي يرد الى القوى الغافية والكامنة انتعاشها، وجديتها، وصحوها، وشعورها باستقلالها،

(١) حديث القى في مكتب البعث العربي في حمص.

وقيمتها، وتأثيرها. فالانقلاب قبل ان يكون برنامجاً سياسياً واجتماعياً هو هذه الحركة الدافعة الاولى، وهذا التيار النفسي القوي، هذه المغالبة التي لا بد منها، والتي لا يفهم أي بعث للأمة بدونها، ذلك ما نفهمه من الانقلاب.

اذن فنحن لانحارب الاوضاع الراهنة لانها فاسدة فحسب، بل نحاربها لاننا مضطرون الى ان نحارب، لانه لا بد لنا من ان نحارب، لا بد للأمة من أن تستكشف في نفسها بقايا القوى الصادقة، وأن تستخرج من اعماقها كنوز الحيوية الكامنة، اننا نناضل ونكافح الاوضاع السياسية والاجتماعية الزائفة، الفاسدة، لا لمجرد ازالتها وتبديلها، بل أيضاً لكي تعود للأمة وحدتها في هذا النضال. فالأمة أنكرت ذاتها نتيجة الغفوة الطويلة، ونتيجة التشويه الطارىء عليها حتى لم تعد تعرف ذاتها، ولم يعد يعرف بعضها بعضاً، لقد انقسمت أيما انقسام، فتناثرت اجزاؤها وأفرادها، وهبطت الى مستوى وضيع والى سجن الانانية، وسجن المصالح الصغيرة، وسجن اعتياد الجمود والقعود. وفي مثل هذا المستوى لا تنشأ وحدة بين الامة، ولا توجد الحرارة الكافية للتعارف والتآلف بين هذه الملايين من العرب. لا بد اذن من غليان، لا بد من مستوى مرتفع، مضطرب، متحرك، لا بد من مشاق نجاتها، لا بد من سير طويل يدخل فيه الفكر مع الخلق مع الايمان، وأن نجرب ونخطيء، ونصحح اخطاءنا. هكذا نتعارف، وهكذا يعود بعضنا الى بعض، فتتوحد الامة في طريق النضال والمشاق.

هذا بالنسبة للأمة كمجموع، وأما بالنسبة الى أفرادها، فالانقلاب الذي عرفناه بأنه مغالبة للتيار، هو وحده الذي يكوّن الشخصية العربية من جديد، هو الذي يلقي على كل فرد تبعة أعماله، وهو الذي يطلق الفكر حراً، مستقلاً، وقيم الخلق مسؤولاً جدياً، وهو الذي يفجر نبع الايمان في الروح، لأن مثل هذا السير الطويل الشاق، لا يستغني عن الايمان، بل ان مادته ودمه ينبعان من هذا المصدر الروحي. فالانقلاب اذن طريق، طريق الى الغاية المنشودة، الى المجتمع السليم الذي نشده. ولكنه ليس طريقاً من الطرق، انما هو الطريق الوحيد. لهذا السبب الذي ذكرته - حتى لو ازيلت هذه الاوضاع من امامنا بمعجزة من المعجزات - فلن نكون

الامة المطلوبة ولن نصل للأهداف المطلوبة، ولن نبني المجتمع المطلوب. ولكن الامة التي نريدها، والمجتمع الذي نريد نبنيه، متوقف علينا نحن، متوقف على جهودنا، على صدقنا، على وعينا، ولا يهبط من السماء، ولا يخرج بشكل آلي، ولكنه في فكرنا، وخلقنا، اذن لا بد ان نمشي في هذا الطريق.

مغالبة التيار هي، في مثل حالتنا، المقياس الوحيد الذي يميز بين الصدق والكذب، بين الجد واللهو. عندما نجد الاستعداد لمغالبة التيار، عندئذ تصبح الاقوال والافعال والبرامج، وكل شيء آخر، ثانوية، ويصبح الشيء الوحيد الملموس الراهن الذي يمكن ان نطمئن الى وجوده هو ان نجد من يستطيعون تحمل هذه التبعة، ومن يسيرون في طريق معاكس للوضع القائم في البلاد العربية، وعندها تنشأ تباعاً، وتنبت الفضائل المطلوبة لاكمال الطريق، وللبناء الجديد في نهاية الطريق. فالانقلاب هو مغالبة الحقيقة للواقع، لأن للأمة حقيقة رغم تخلفها ورغم تشوهها، وهذه الحقيقة تعلن عن نفسها مهما تكن سيطرة الواقع. والانقلاب هو هذا الاعلان، هذا الاثبات لوجود الحقيقة. الانقلاب هو مغالبة المستقبل للحاضر، لأن اهدافنا المستمدة من اعماقنا ومن روحنا شعت وانطلقت تسبقنا، لتغرينا بالسير نحوها والتسابق اليها، هذا هو المستقبل، فالانقلاب هو اذن مغالبة هذا المستقبل، الذي هو حقيقة انفسنا واهدافنا، للحاضر المزيف، للحاضر الغريب عن حقيقتنا.

ايها الاخوان: الماضي شيء حقيقي، وشيء اصيل في حياة امتنا، ومن العبث ومن الخطل ومن العقم في التفكير ان ننكر هذه الحقيقة، اننا نقصد بالماضي ذلك الزمن الذي كانت فيه الروح العربية متحققة. وماذا نقصد نحن بالمستقبل، وما هو هذا المستقبل الذي يغرينا ويدفعنا الى النضال ان لم يكن هو الزمن الذي يجب ان تتحقق فيه روحنا الأصيلة. فماضينا بهذا المعنى الصافي الصادق، أرسلناه أمامنا، اشعاعاً ينير لنا الطريق ولم نتركه وراءنا نندب عهده ونستصرخ عونه، ونتنظر بجمود وخمول ان يأتي هو الينا، وان ينزل الى مستوانا. ليس هذا هو الماضي، الماضي كحقيقة للروح العربية، كحقيقة متحققة للروح العربية لا يمكن ان يأتي، ولا يمكن ان يرجع ويهبط وينزل، وانما علينا نحن ان نسير نحوه سيراً تقيماً الى الامام، وان

نرتفع اليه ونصعد، وأن نسلك طريقاً وعرة متعبة حتى ننمي فينا الفضائل والمواهب والقوى التي تؤهلنا أخيراً لأن نفهمه، فنمتزج به ونلتقي معه. فالسير التقدمي، والسير الصاعد في طريق الانقلاب هو السبيل الوحيد للالتقاء بماضيينا. وهذا الالتقاء لا يكون الا ارتقاء، ولا يكون هبوطاً وانحداراً، او جموداً وامعاناً في الجمود والقعود.

الى جانب هذه النظرة نحو الماضي التي نضعه في مستقبل بعيد يستثير فينا الهمم، نرتفع اليه ونبلغه بعد الجهد، ونستحقه استحقاقاً كريماً، توجد النظرة الاخرى التي تعكس ظلال الحاضر السوداء، البشعة، الثقيلة، على ذلك الماضي، فيفهم من الماضي انه استمسك بالحاضر وتشبث عنيد للاحتفاظ به، والاغراق في اخطائه ومفاسده. فكيف يكون هذا الماضي انطلاقاً روحياً، وفكراً مبدعاً وخلقاً قوياً مستقلاً، وايماناً حياً فياضاً؟ التشبث بالاوضاع الراهنة، المحافظة عليها، الدفاع عن هذه الاوضاع التي تهدد العرب بالانقراض، ليس هذا هو الماضي، بل انه هو الحاضر، هو الواقع الفاسد، هو النفعية، هو عبودية المصالح. اما الماضي الحقيقي فهو الذي يدعونا حيننا اليه، الى أن نسعى ونجد، ونناضل ونرتفع. هذا هو الماضي الروحي الحر السليم الذي كان للعرب. لقد كان هذا الماضي عهداً تحققت فيه الروح، اي انه كان هو نفسه انقلاباً بلغ فيه الفكر حرية واستقلاله، ونضارة احساسه بالحياة وبالعلم فأبدع ونظم، وانسجم مع قوانين الحياة والطبيعة، وبلغت فيه الشخصية حرية وفردية وجديتها ومسؤوليتها، فانطلقت تعمل اعمالاً حرة، وتقف مواقف بطولية وتتجاوز حدود الانانية الى الانسجام مع الارادة العامة والانسجام مع المجموع، وبلغت فيه الروح ينبوعها الصافي فامتلات خصباً وتجدداً، وعرفت قدرها الازلي، فأشبعت بالايمان.

لقد كان ماضيينا انقلاباً، ولن نبلغ مستواه، ولن نلتقي به الا عن طريق الانقلاب. فالانقلاب الجديد هو السير الواعي الجاد، المؤمن، نحو هذا المرتفع الذي يحل فيه التناقض وتوحد الاضداد، ويلتقي الماضي بالمستقبل، وتتصالح الامة مع نفسها في الابداع وأداة الرسالة.

يسألوننا، ايها الاخوان، ماذا تقصدون بالرسالة، الرسالة العربية الخالدة؟

الرسالة العربية ليست ألفاظاً نتغنى بها، ليست مبادئ توضع في البرامج، ليست مواد للتشريع، كل هذه أشياء ميتة زائفة، لان بيننا وبين الوقت الذي نستطيع فيه ان نشرع من وحي روحنا ورسالتنا مسافة طويلة، وفاصلاً كبيراً. ما هي اذن الرسالة الآن؟

هي حياتنا نفسها، هي ان نقبل بتجربة لهذه الحياة، بتجربة عميقة صادقة ضخمة جسيمة متكافئة مع عظمة الامة العربية، متكافئة مع عمق الآلام التي يعانيتها العرب، متكافئة مع جسامه الأخطار التي تهدد بقاء الأمة. هذه التجربة الحية الصادقة، التي تردنا اخيراً الى ذاتنا، والى واقعنا الحي، وتحملنا مسؤولياتنا وتضعنا في طريقنا الصحيح، لكي نكافح هذه الامراض وهذه الحواجز، وهذه الاوضاع الزائفة، نكافح الظلم الاجتماعي والاستثمار الطبقي، وعهود النفعية والرشوة والاستغلال ونكافح الاستبداد، وتزييف الارادة الشعبية وامتهان كرامة الفرد العربي كمواطن وانسان، في سبيل مجتمع حر يسترد فيه كل عربي شعوره بذاته ووجوده وكرامته، بفكره ومسؤولياته. . التجربة التي نكافح فيها تقطيع اوصال الامة العربية الى اقطار ودويلات مصطنعة مزيفة، حتى نصل الى توحيد هذه الاعضاء المتناثرة، حتى نصل الى حالة سليمة طبيعية لا يتكلم فيها عضو مبتور باسم الكل، حتى نتخلص من هذا الوضع الغريب الشاذ - عندها يستقيم للعرب ان يجتمعوا كلهم فتستقيم نفوسهم، وتتصحح افكارهم، وتتقوم اخلاقهم، ويتفتح مجال الابداع امام عقولهم، لانهم أصبحوا كائناً طبيعياً سليماً، امة واحدة. فهذه التجربة السليمة الصادقة لمكافحة هذه الاوضاع حتى نصل الى الوضع السليم، تلك هي الرسالة العربية. والرسالة هي ما يقدمه جزء من البشر الى مجموعة الانسانية، ولا يعطى معنى الرسالة لشيء ضيق اناني وانما لا بد لها من المعنى الانساني الشامل الخالد. قد تتساءلون كيف تكون رسالتنا هذه في معالجة مشاكلنا، فأقول لكم بأن العرب عندما يقدمون على هذه التجربة، وهم في الواقع قد بدأوا فيها وانغمسوا فيها، ولن يتراجعوا مطلقاً، عندما يقومون بكل ذلك، فانه لن يقتصر عمل هذه التجربة على حل مشاكلهم فحسب، بل يخرجون منها بتجربة انسانية عميقة تخلق فيهم شخصية

مشبعة بآلام الحياة الانسانية ومعرفة اسرارها، ومداواة امراضها، فيقدمون للعالم
وللانسانية كلها ثمرة هذه التجربة الخالدة.

شباط ١٩٥٠